

الإخلاص

للشيخ عبد المحسن العباد

هو في اللغة: تخلص الشيء وتجريده من غيره، فالشيء يسمى خالصاً إذا صفا عن شوبه وخلص عنه، ويسمى الفعل المصفى المخلص من الشوائب إخلاصاً، وفي الأول قوله تعالى: **{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ}**، فاللبن الخالص ما سلم وصفا من الدم والفرت ومن كل ما يشوبه ويكدر صفاءه، ومن الثاني قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ}**.

وفي الاصطلاح: تصفية ما يراد به ثواب الله وتجريده من كل شائبة تكدر صفاءه وخلوصه له سبحانه.

منزلته: الإخلاص هو أساس النجاح والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة، فهو للعمل بمنزلة الأساس للنيان، وبمنزلة الروح للجسد، فكما أنه لا يستقر البناء ولا يتمكن من الانتفاع منه إلا بتقوية أساسه وتعاهده من أن يعتريه خلل فكذلك العمل بدون الإخلاص، وكما أن حياة البدن بالروح فحياة العمل وتحصيل ثمراته بمصاحبته وملازمته للإخلاص، وقد أوضح ذلك الله في كتابه العزيز فقال: **{أَفَمَنْ أُسِّنَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَفْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّنَ بُنْيَانَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ قَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**، ولما كانت أعمال الكفار التي عملوها عارية من توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه جعل وجودها كعدمها فقال: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}**.

والإخلاص أحد الركنين العظيمين اللذين انبنى عليهما دين الإسلام، وهما إخلاص العمل لله وحده وتجريد المتابعة للرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: **{لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}**، قال: "أخلصه وأصوبه"، قيل: "يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص: ما كان لله، صواب: ما كان على السنة". وقال شارح الطحاوية: "توحيدان لا

نجاه للعبد من عذاب الله إلا بهما؛ توحيد المرسل سبحانه وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فيوحده صلى الله عليه وسلم بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما يوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل".

محلّه: ومحل الإخلاص القلب، فهو حصنه الذي يقطن فيه، فمتى كان صالحاً عامراً بسكناه وحده تبع ذلك صلاح الجوارح، ومتى كان خراباً سكن فيه الرياء وملاحظة الناس وكسب ودهم وتحصيل ثنائهم والطمع فيما عندهم، ويتبع ذلك سعي الجوارح لتحصيل هذه الأغراض الدنية، وليس أدل على ذلك وأوضح بيانا من قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب"، وقد أوضح صلى الله عليه وسلم هذا المعنى وبين تبعية الجوارح لما يقوم بالقلب بقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه". والإخلاص مطلوب في الصلاة والزكاة والصيام والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كل ما شرعه الله من قول أو فعل، فيقوم الإنسان بتأدية ما شرع له، والباعث له عليه امتثال أمر الله خوفاً من عقابه، وطمعاً فيما لديه من الأجر والثواب.

والإخلاص مطلوب أيضاً فيما يلتزمه الإنسان من الأعمال فهو مطلوب من العامل، ومن المستشار والمؤتمن والموظف، ومن المعلم والمتعلم، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ما يترتب على طلب العلم والإخلاص فيه من النتائج الحميدة، وما يترتب على فقدته من العواقب الوخيمة بقوله صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة" رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروى عنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: "ما عملت فيها؟" قال: "قاتلت فيك حتى استشهدت"، قال: "كذبت؛ ولكنك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل"، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: "ما علمت؟" قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت القرآن فيك" قال: "كذبت؛ ولكنك تعلمت ليقال: عالم وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار" الحديث.

ويروى أن معاوية رضي الله عنه لما بغله هذا الحديث بكى حتى أغمى عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله؛ قال الله عز وجل: **{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ }**، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لا تعلموا العلم لثلاث؛ لتماروا به السفهاء، ولتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا وجهه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله فإنه يبقى ويذهب ما سواه".

الحث عليه وبيان فضله:

ولما كان الإخلاص بهذه المنزلة التي تقدم وصفها جاء الشرع المطهر في الحث عليه والترغيب فيه وبيان فضله في آيات كثيرة وأحاديث عديدة، نذكر بعضها على سبيل التمثيل فمن ذلك قوله تعالى: **{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ }**، وقوله: **{ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً }**، وقوله: **{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ }** الآية.. وقوله: **{ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ }** (الأنعام: الآية 162-163)، وقوله: **{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }** (الكهف: من الآية 110)، وقوله: **{ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي }** (الزمر:14).

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله لأصحابه في غزوة تبوك: "إن بالمدينة رجالا ما سرتهم سيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حسبكم المرض" وفي رواية: "إلا شركوكم في الأجر" متفق عليه واللفظ مسلم، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك" متفق عليه.

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" رواه مسلم، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" جوابا لمن سأله عن رجل يقاتل شجاعة ويقا تل الحمية ويقا تل رباء أي ذلك في سبيل الله، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يكتسبه الإنسان في الدنيا بسبب الإخلاص إلى جانب ما أعده الله له في الآخرة من مثوبة بما ذكره صلى الله عليه وسلم من قصة الثلاثة الذين أووا إلى غار للمبيت فيه فانحدرت صخرة وسدّت عليهم باب الغار ففرج الله عنهم ذلك بسبب إخلاصهم الأعمال

الصالحة له سبحانه وتعالى.

ما يضاد الإخلاص وبم تحصل السلامة منه:

وكما أن الإخلاص تصفية الشيء مما يشوبه فإذا لم تحصل تصفيته انتفى الإخلاص.

إذا قام الإنسان بعمل محمود والباعث له عليه ابتغاء وجه الله سمّي عمله إخلاصاً فإذا فقد ذلك الباعث على العمل أو وجد ولكنه مشوب بباعثٍ آخر كالرياء انتفت التسمية، فإخلاص العمل لله وحده ينافيه، ويقابله أن يحلّ في القلب قصد المخلوقين التماساً لحمدهم وثنائهم وطمعاً فيما عندهم، ولما كان ذلك ينافي الإخلاص جاءت الشريعة الإسلامية بدم الرياء ومقت

المرائين فقد قال سبحانه: **{قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ**

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْتَعُونَ

الْمَاعُونَ}. وأخبر أن الرياء من صفات المنافقين فقال: **{وَإِذَا**

قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى}، وروى مسلم عن أبي

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

قال الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً

أشرك معي فيه غيري تركته وشركه".

ومن ابتلاه الله بهذا الداء العضال فعليه أن يسعى في تحصيل الأدوية النافعة التي تستأصله وتقضي عليه، ومن أبرزها شيئان:

أحدهما: أن يزهد فيما ينتظر من الناس من الثناء والعطاء.

والثاني: أن يحمل نفسه على إخفاء الأعمال.

وقد أوضح الأول منهما ابن القيم في الفوائد ص 148 فقال: "لا

يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند

الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوت، فإذا حدثت

نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين

الناس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيها زهد عشاق الدنيا

والآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح

سهل عليك الإخلاص. فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع

والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهل عليك

علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده

خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه، وأما الزهد

في الثناء والمدح فيسهل عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه

ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي

للنبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ مدحي زين وذمي شين" فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك الله عز وجل"، فازهد

في مدح من لا يزينك مدحه ولا يشينك ذمه، وارغب في مدح من

كل الزين في مدحه وكل شين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا

بالصبر واليقين, فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد
السفر في البحر في غير مركب, قال تعالى: **{ قَاصِرٌ إِنْ وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَحِقُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ }**, وقال تعالى:
{ يَا أَيَّتَا يُوقِنُونَ } " انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى إخفاء العبادة ابتعاداً
عن الرياء بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه
في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله,
"ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه,
ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه".

فالحاصل أن العمل مذموم إذا كان الباعث عليه التماس حمد
الناس وثنائهم, والطمع فيما عندهم, أما إذا عمل الإنسان العمل
خالصاً لله ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين
بسبب ذلك العمل فارتاح لذلك واستبشر به لم يضره, ولم ينقص
من أجره, بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن
الرجل يعمل العمل محبة لله فيحمد الناس عليه قال: " **تلك
عاجل بشرى المؤمن** " رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.